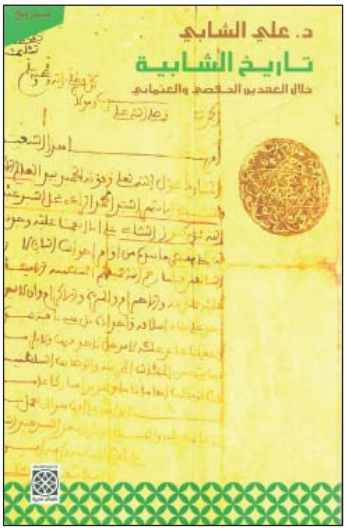

علي الشَّابِّي.- تاريخ الشَّابِّيَّة خلال العهدين الحفصي والعثماني من 1431 إلى 1867 (تونس: منشورات دار نقوش عربية، 2015)، 470 ص.

Ali ash-Shāpi -.*Tārīkh ash-shapiyya khilāl al-ʿahdayn al-hafṣī wa-lʿuthmānī min 1431 ʾlā 1867* (Tunis: manshūrāt dār nuqūsh ʿarabiyya, 2015), 470p.

تناول المؤلف علي الشَّابِّي تاريخ الشَّابِّيَّة، من موقع الانتماء إلى الأسرة نفسها، وبعدما حقق مكانته في المجتمع التونسي، إذ عمل أستاذا بكلية الشريعة وأصول الدين، ومديرا للمعهد الأعلى لأصول الدين، كما كان عضوا بمجلس النواب، ثم رئيسا لجامعة الزيتونة ثم وزيرا للشؤون الدينية ورئيسا للمجلس الإسلامي الأعلى، وله عدة منشورات من أهمها هذا المؤلف. وقد وضع كاتبه بمنهج تشريحي اعتمد فيه على ما جمعه في بحوثه المنشورة، كما ارتكز على قراءة الوثائق الخاصة والرواية الشفوية الأسرية في محاولة تجديد الرؤية والربط بين البعدين الصوفي والنضالي لهذه الحركة، وإن أثرت تغطية ما يفوق أربعة قرون على السبك العام، ولم يرد أي تحديد لاستعماله مصطلح "الدولة" الشَّابِّيَّة الذي ورد من التوطئة و"الإمارة" التي توافق الواقع التاريخي والذي جاء في سياق الفصول النضالية، فإن المؤلف حقق سعيه للتأريخ الشامل لهذه التجربة.

يقف القارئ على ترجمة مفصلة لأحمد بن مخلوف الملقب عبيد الله، في حوالي نصف الكتاب، بدءاً من مولده سنة 1431م إلى تقدير دوره وسلوكه التربوي من تصحيح سلوك الأعراب بعدما تمردوا على المجتمع ومالوا إلى النهب والقتل والغصب في العهد الحفصي، ويعزو المؤلف هذا البعث الذوقي الروحي إلى خلو المجال وكيفية استغلال ابن مخلوف لعلمه الذي أعاد القبائل إلى حس الانتساب لشعائر الإسلام والابتعاد عن المروق. وينقلنا بعد ذلك إلى دور ولده عرفة الشَّابِّي في توحيد قبائل غرب تونس وشرق

الجزائر، وخلق التآلف الذي سمح بتأسيس الإمارة الشَّابِّيَّة كحركة مناوئة للحكم الحفصي والعثماني من أجل الدفاع عن الهوية الإفريقية.

ينتسب أحمد بن مخلوف إلى بلدته "الشَّابَّة" الواقعة على الساحل الشرقي التونسي، وهو الذي لقب نفسه بالشَّابِّي، وإن حمل أبناؤه فيما بعد نسبة "القيرواني،" وأهم فصول تكوينه بعد حفظ القرآن في بلدته، انتقاله إلى مدينة تونس وإقامته ثمان سنوات بالمدرسة المنتصرية لطلب العلم إلى أن اضطر لمغادرتها والإقامة في قصور الساف ثمان سنوات أخرى، قبل أن ينتقل إلى القيروان التي ذاع منها صيته واشتهر ذكره.

أخذ أحمد بن مخلوف علوم الظاهر على عدد من الشيوخ، ذكر المؤلف خمسة منهم، وأشار إلى حظوته بإجازتين من الشيخين؛ محمد بن قاسم الرصاع، ومحمد البيدموري،. أما في التصوف، فإن تكوينه بدأ مع الشيخ أحمد بن عروس (ت. 1463/868) في تونس، ثم كانت المجاهدة والخدمة بعد مصاحبته للشيخ علي المحجوب (ت. 1454/859) في قصور الساف التي كانت مركزاً صوفياً نشيطاً، ولقي من المشارقة عبد الوهاب الهندي عائداً من تلمسان في زيارة لمقام الشيخ أبي مدين، وعاشا معاً في القيروان حياة روحية خالصة، وبذلك أفاد منه وقررا أن يحجا معاً، وفي مكة المكرمة لازم الشيخ عبد الكبير اليمني، وبذلك جمع مؤثرات التصوف المغربي والمشرقي، وبدا ذلك جلياً في ممارسة حياته الصوفية العملية.

سلك ابن مخلوف طريقة سنية استمدت أصولها من الكتاب والسنة والتوحيد والأخلاق مع استحضار فكرة الوحدة المطلقة للوجود في توجهه الفلسفي الواضح، ولعل ما ميز طريقته وممارسته لحياة صوفية عملية هو الجمع بين السمات السنية وعدم رفض الانصهار في الفكر الصوفي الفلسفي الذي اتسع في المجال التونسي، والذي قوبل بالرفض حوالي قرنين ونصف، إذ لم يستطع ابن عربي (ت. 1240/638) أن يترك أثراً عند مروره بتونس، كما أن ابن سبعين (ت. 1270/669) لقي في زيارته معارضة واستنكاراً شديدين من الفقهاء، لكننا مع طريقة أحمد بن مخلوف نلاحظ إدماج هذا الفكر في صلب تصوفه السني كما تشهد بذلك رسائله التي تعتبر الأثر الوحيد المعتمد في ترجمة فكره وإبراز خصائص ذوقه.

وإذا تساءلنا عن البعد الروحي لدعوته التي اقترنت بإحساسه بأن الداء المستشري في المجتمع التونسي يكمن في التدهور الديني والخلقي، فإننا ندرك بعض الجوانب في

الغاية التي رسمتها الشَّابِّيَّة لتصحيح الأفكار، وفي الكيفية التي اعتمدتها لتحقيق ذلك، كما أننا لا نغفل طبيعة السبل التي عمل بها، فقد أقام دعوته على نهج البساطة في التبليغ، والممارسة بالقواعد السنية دون الإغراق في النزوع الفلسفي في التربية، كما أقام نظاماً شبه هرمي للتعريف بها اعتماداً على التلاميذ والمريدين الذين أشرفوا على تبليغ أفكاره، وأبرزهم التباسي والمقنعي اللذين حققا لطريقته نقلة نوعية جعلته يحظى بدعم القبائل، وتصل أصداء حركته مجالاً واسعاً، فقد سعيا لبث الدعاة في كل القبائل ومكن إقبال الناس عليه من تكوين قاعدة بشرية، وتحصيل الدعم المعنوي والمادي الذي جعله ينتقل من حال العوز والعسر إلى الثروة والرفاهية، وإن تعرض أحياناً لأنواع من الطعن والاعتراض ولم تسلم طريقته من التشنيع والتهجين من بعض الأعيان والفقهاء، فإنه تفاعل مع ما يمكن أن تواجه به ظرفية نهاية القرن الخامس عشر الميلادي كمرحلة دقيقة من تاريخ الغرب الإسلامي بعد توالي نكبات الأندلس، واستفحال الخطر الإيبيري على السواحل وعدم استكانة تونس للقوة العثمانية، وبذلك اعتبرت طريقته بمثابة الشرارة التي أيقظت، في نظر المؤلف،الحماس الديني الوطني الذي سيأخذ المعنى الجهادي مع رئاسة ولده عرفة الشَّابِّي بعد وفاته سنة 1492/898.

أورد المؤلف ترجمة ضافية لعرفة الشَّابِّي نقف منها على مولده سنة 1473/878، وعلى ملامح الزمن الذي نشأ فيه، كما نتبين شخصيته التي أُعجب بها والده بسبب المواهب التي لم تتوفر لإخوته، وباعتبار براعته في العلوم النقلية والعقلية أيضاً، وقد غدا بذلك رمزاً من الرموز النادرة على امتداد تاريخ القرن السادس عشر الميلادي أي في خضم مواكبته لوهَن الدولة الحفصية وتقلص نفوذها. ومن أجل ذلك، حسب ما جاء عند المؤلف، خاض غمار إيقاظ الحس القومي والمنافحة عن ذاتية الأمة الممثلة في العروبة والإسلام، ونجح في إعلان استقلاله في القيروان، وفي الوسط، والجنوب الغربي، وفي الشمال الغربي، ومنطقة قسنطينة إلى جبال الأوراس، وبلاد السوف، بل امتد هذا النفوذ إلى مشارف تونس.

أحيطت شخصية عرفة الشَّابِّي، على حد قول المؤلف، كرائد للنضال القومي ورئيسا للطريقة والزاوية، بكثير من الوهج الروحي والقدرة على جمع كلمة القبائل التي فاق عددها خمساً وثلاثين قبيلة، والتي بلغ بتأييدها مستوى تكوين إمارة سنة 1535/942 بعدما اعتمد أسلوب التوحيد بإلغاء الفواصل بين أهل المدن والأعراب وتربيتها على أساس التوجيه نحو الحل البديل. وقد جعلته دعوته الوطنية يواجه ثلاثة أعداء هم؛

الحسن الحفصي، وجيش شارل الخامس، والعثمانيين، وكانت مواجهته للحفصي بسبب تحالفه مع الإسبان، بينما لم يخف نفوره من العثمانيين ومن فتوحاتهم مما جعله يصنفهم غزاة تستروا بالدين. ولذلك عمل على تأسيس الإمارة وعمره آنذاك أربعة وستين عاماً بعد وقعة "باطن القرن" في صفر 942/ شتنبر 1535 التي انكسر فيها الحسن الحفصي أثناء محاصرته القيروان، وقادها من أبنائه أحمد الشَّابِّي ومحمد الزفزاف وابن أخيه محمد بن أبي الطيب الذي سيتولى الإمارة من بعده. أما الوقعة الثانية، فكانت أشد وطأة بعد تحالف الحسن الحفصي مع الإسبان وإقناعهم بالقتال معه، غير أن الوقعة التي دامت يوماً كاملاً كانت فاصلة بين الطرفين، إذ على الرغم من تفوق الحليفين بفضل الانضباط وأنواع الأسلحة، فإن الحماس الديني مكَّن جيش الشَّابِّيَّة من ترجيح الكفة لصالحها بعد أن انقلب الأعراب المرافقين للحفصي، وانضموا إلى جيش الشَّابِّيَّة وهرب الحسن إلى سوسة، وارتد الجيش الإسباني، وكان ذلك بتاريخ 18 نونبر 1540 بقيادة ابنه أحمد. وبذلك تزعم عرفة الحركات الشعبية المناهضة للسلطة والغزاة إلى وفاته سنة 949 / 1542 لتواصل الإمارة دورها برئاسة أمير القيروان محمد بن أبي الطيب.

ولا يخفى تأثير الموارد المادية التي جعلت عرفة الشَّابِّي يحقق هذا الحضور، فقد كانت وفادة القبائل وتقديم الزكاة والهدايا إلى جانب الولاء منذ زمن والده، لكن زاد الأمر رسوخا بعد أن حول الزكاة الشرعية إلى "عادة" قارة، اتخذت شكل القانون العرفي كضريبة عززت النفوذ، ولم تنقطع القبائل عن أدائها لأبنائه وأحفاده من بعده، وكانت تصرف في أغراض قومية واجتماعية، فقد كان أشد الناس ثراءً في إفريقية (326)، وبذلك استطاع أن يضرب العملة النحاسية التي حملت اسمه، والتي لم يقف عليها المؤلف، لكن بعض الباحثين شاهدوها وأكدوا على شكلها المربع (297)، ونظراً لحضوره ورئاسته وُسِم بعدد من الألقاب منها "المرابط" و"صاحب القيروان" و"خليفة القيروان" وسمي عند بعض المؤرخين المسيحيين: "بابا القيروان."

تولى الإمارة ثاني أمير وهو محمد بن أبي الطيب بن أحمد بن مخلوف الشَّابِّي في مرحلة عصيبة احتد فيها الصراع، واستشرى الانقسام، وخلال الخمس عشرة سنة من حكمه، ما بين 1542 و1557، خاض صراعات قوية مع أحمد سلطان في الشمال ودرغوث باشا في الجنوب، وانتهى الأمر بشن هجوم عليه قرب القيروان سنة 1552، كما ألحقت به الهزيمة في آخر شهر دجنبر 1557 أمام قوات درغوث باشا التي كانت سبباً في أفول أول إمارة قومية في تاريخ تونس ا دون أن تنتهي المقاومة، إذ يحيلنا المؤلف على تداعيات مائة وعشرين سنة من الحضور الحربي بقيادة عبد الصمد الشَّابِّي، ثم ابنه عليّ بن عبد الصمد

وبعده بوزيان، وذلک بين سنتي 1557 و1677، أي إلى واقعة "تاسة" التي عدّت نهاية حقيقية لدور الشَّابِّيَّة الحربي.

أما الوجه الآخر الذي لم ينقطع لهذا النضال، حسب تعبير الكاتب، فهو تأسيس علي بن محمد المسعود الشَّابِّي "لبيت الشريعة،" وهو المنشأة التعليمية القضائية للطريقة الشَّابِّيَّة، وقد خصها بآخر فصول مؤلفه معرفاً بظروف التأسيس والشيوخ الذين تعاقبوا على تسييرها، وكيف حمت التأثير الصوفي والعلمي بعد سقوط الإمارة. ويجد القارئ تبياناً خاصاً بالمشايخ منذ بداية المؤسسة سنة 1630/1040 إلى نهايتها سنة 1867، وهو آخر تاريخ مقترح في الكتاب الذي عززه المؤلف بمجموعة من الملاحق.

ونختم بالإشارة إلى دور الحركات الصوفية في مواجهة الأخطار الإيبيرية في كل من إفريقية والمغرب، ونخص بالذكر دولة الشرفاء السعديين التي نشأت في نفس المدى الزمني بدعم صوفي جزولي، ونجحت في المحافظة على سيادة المغرب ووحدته.

وقد أورد المؤلف بين فصول حديثه بعض الإشارات الضمنية حول المغرب عند حديثه عن تأثير الشَّابِّيَّة ومجالها الذي بلغ مصر والشام وتركيا ومن ذلک:

– الإشارة إلى الاتجاه الصوفي السني الذي انتصر للمذهب المالكي وتزعمته مدرسة أبي الحسن الشاذلي (ب. 1258/656) كأصل استساغته الطبقات الاجتماعية في تونس (68).

– وجود عدد من المقدمين والدعاة الذين خدموا عرفة الشَّابِّي في كل من مراكش ودرعة (107).

– إقامة أحد المريدين من المغاربة بعدما تخلف عن السفر إثر رجوعه من الحج نظراً لشدة تعلقه بعرفة الشَّابِّي وأصله من سجلماسة أو درعة (254).

نفيسة الذهبي
جامعة ابن طفيل بالقنيطرة